

المجنون

أمثاله و أشعاره

جبران خليل جبران

المجنون

أمثاله وأشعاره

تأليف

جـ ان خليل جـ ان

كيف صرتُ مجنونا

هذه قصتي إلى كل من يودّ أن يعرف كيف صرتُ مجنوناً : فى قديم الأيام قبل ميلاد كثيرين من الآلهة نهضتُ من نومٍ عميق فوجدتُ أن جميع براقعي قد سُرِقَتْ ، ـــ البراقع السبعة التى حبكتُها وتقنعتُ بها فى حيواتى السبع على الأرض . ـــ فركضتُ سافر الوجه فى الشوارع المزدحمة صارخاً بالناس ، « اللصوص ! اللصوص ! اللصوص الملاعين ! » فضحك الرجال والنساءُ منى وهربَ بعضهم إلى بيوتهم خائفين مذعورين .

وعندما بلغت ساحة المدينة إذا بفتًى قد انتصب

على أحد السطوح وصرخَ قائلًا : « إن هذا الرجل مجنون أيها الناس ! » وما رفعتُ نظرى لأراه حتى قبلت الشمس وجهى العارى لأول مرة . لأول مرةٍ قبلت الشمس وجهى العارى فالتهَبتْ نفسى بمحبةِ الشمس ولم أعُدْ بحاجةٍ إلى براقعى . وكأنما أنا فى غيبوبةٍ صرخت قائلا ، « مباركون ، مباركون أولٰئك اللصوص الذين سرقوا براقعى » .

هكذا صرتُ مجنوناً ، ولكننى قد وجدت بجنونى هذا الحرية والنجاة معاً : حرية الانفراد ، والنجاة من أن يُدرِك الناس كيانى ؛ لأن الذين يدركون كيانَنا إنما يستعبدون بعض ما فينا .

ولكن لا أفخرَنَّ كثيراً بنجاتى ، فإن اللص وإن كان فى غيابة السجن فهو فى مأمنٍ من أقرانه اللصوص .

* * *

الله

عندما ارتعشَتْ شفتاى بالنُطق لأول مرةٍ ،
صعدتُ إلى الجبلِ المقدس وناديتُ الله قائلًا :
« إننى عبدُك يا ربى ؛ مشيئتك الخفيةُ شريعتى ،
وسأظلُّ خاضعاً لكَ سحابةَ الحياة » .

فلم يُجبنى الله ، بل مرَّ كعاصفةٍ هوجاءَ
واختفى عن ناظرَىَّ .

وبعد ألف سنةٍ صعدتُ ثانيةً إلى الجبلِ المقدسِ
وخاطبتُ اللهَ قائلًا : « أنا جبلةُ يَديكَ يا خالقى ،
من تراب الأرض صنعتنى وبنفحةٍ من روحكَ
العُلويةِ أحييتنى . فأنا مدينٌ لك بكُليتى » .

فلم يُجبني الله ، وكألفٍ من الأجنحة الخاطفةِ اجتازَ بي عابراً .

وبعد ألفِ سنةٍ صعدتُ إلى الجبل المقدسِ أيضاً وناجيتُ الله ثالثةً قائلًا : « يا أبتاه القدوس ، أنا ابنُك الحبيب . بالرأفة والمحبة ولدتني ، وبالمحبة والعبادة سأرثُ ملكوتك » .

فلم يجبني الله في هذه المرة أيضاً . وكالضباب الذي يغشي قصيَّ التلال توارى عن عينَيَّ .

وبعد ألف سنةٍ صعدتُ إلى الجبلِ المقدسِ وخاطبتُ اللهَ رابعةً قائلًا : « يا إلٰهي الحكيم العليم ، يا كمالي ومحجَّتي . أنا أمسُك وأنت غدي . أنا عروق لك في ظلمات الأرض وأنت أزاهر لي في أنوار السماوات ، ونحن ننمو معاً أمام وجه الشمس .

فعطف الله إذ ذاكَ عليَّ ، وانحنى فوقى وهمس فى أذنىَّ كلماتٍ تذوب رقةً وحلاوة ، وكما يطوى البحر جدولًا منحدراً إليه طوانى الله فى أعماقه .

وعندما انحدرتُ إلى الأودية والسهول كان الله هنالك أيضاً .

* * *

يا صاحبي

يا صاحبي : إنني لستُ على ما يبدو لك مني ، فما مظاهري سوى رداءٍ دقيقِ الصُنع مَحوكٍ من خيوطِ التساهلِ والحُسنى ، ألتفُّ به ليدرأ عني تطفلك ويقيك من إهمالي وتغافلي . وأما ذاتي الخفيةُ الكبرى التي أدعوها أنا فسرٌّ غامضٌ مكنونٌ في أعماقِ سكون نفسي ولا يدركه أحدٌ سواي ؛ وهنالك سيبقى أبداً غامضاً مستتراً .

يا صاحبي : إنني أودّ ألا تُصدقَ ما أقول وألا تثق بما أفعل ، لأن أقوالي ليست سوى صدى لأفكارك ، وأفعالي ليست سوى أشباح آمالك .

يا صاحبي : عندما تقول لي : « الريحُ تهبُّ شرقاً » . أجيبك على الفور قائلًا ، « بلى ، إنها تهبُّ شرقاً » ، لأنني أريد ألّا يخطر لك أن أفكاري السابحة مع أمواج البحر ، لا تستطيع أن تحلق طائرةً على متون الرياح . أما أنت فقد مزقت الأرياح نسيج أفكارك القديمة البالية ، فبتَّ قاصراً عن إدراك أفكاري العميقة المرفرفة فوق البحار . وحسَنٌ أنك لم تدرك كُنْهها ، لأنني أُريدُ أن أمشي على البحر وحدي .

يا صاحبي ! عندما تبزغ شمس نهارك تدنو ظلمة ليلي ، ومع ذلك فإني أحدثك من وراء ستائر ظلمتي عن أشعة الشمس الذهبية التي ترقص عند الظهيرة على قنن الجبال ، وعما تحدثه في رقصها من الأظلال الظليلة المُنسابة إلى الأودية

والحقــول ــ أحـــــدثك عن كل ذلك لأنك لا تستطيع أن تسمع أناشيد ظلمتى ، ولا أن ترى خفقان جناحيَّ بين الكواكب والنجوم . وما أحلى أنك لا تسمع ولا ترى ، ذلك لأنى أُوثر أن أُسامرَ الليل وحدى .

يا صاحبى ! عندما تصعد إلى سمائك أهبط إلى جحيمى . ومع أنه تفصلنى عنك هوةٌ لا يستطاع عبورهـا ، تظـل تناديـنى قائـــلًا : « يا رفيقـــى يا صاحبى » فأجيبك : « يارفيقى ، يا صاحبى » لأننى لا أريد أن ترى جحيمى ، فإن لهيبَهُ يُحرق باصرتَيْك ، ودخانَه يسدُّ مِنخرَيْك . أما أنا فإننى أضنُّ بجحيمى أن يزوره من كان على شاكلتك ؛ لأننى أفضل أن أكون فى جحيمى وحدى .

يا صاحبى ! أنت تقـول إنك تعشق الحـق

والفضيلة والجمال ؛ وأنا أقول مقتدياً بك إنه يليق بالإنسان أن يعشق مثل هذه المناقب ؛ غير أنني أضحك من محبتك في قلبي ساتراً ضحكي عنك ؛ لأنني أُريد أن أضحك وحدي .

يا صاحبي ! إنك رجلٌ فاضلٌ متيقظٌ حكيم ؛ بل إنك رجلٌ كامل . ولذلك فإني ضناً بكرامتك أخاطبك بحكمة وتيقُّظ — ولكنني مجنون منجذبٌ عن العالم الذي تقطنه أنت إلى عالم غريب بعيد ، وإنني أستر عنك جنوني لأنني أودُّ أن أكون مجنوناً وحدي .

أنت لست بصاحبي ، يا صاح ! ولكن كيف السبيل لإقناعك فتفقه وتفهم ؟

إن طريقي غير طريقك ، ولكننا نمشي معاً جنباً إلى جنب .

* * *

اللعين[1]

قلتُ مرةً للَّعين : « ألم تسأم نفسك الإقامة في هذا الحقل وحيداً منفرداً ؟ » .

فأجابني قائلًا : « إنَّ لي في التخويف لذةً لا يُسبرَ غورُها ، ولذا فإنني راضٍ عن عملي ولا أملّه » .

ففكرتُ هنيهةً ثم قلتُ له : « بالصواب أجبتَ ، فإنه قد سبق لي فخبرتُ هذه اللذةَ بنفسي » .

---

(١) هو الشاخص الذي ينصب في هيئة الرجل بين الزرع لطرد الوحوش .

فأجابنى قائلًا : « إنك واهمٌ يا هذا ، فإن هذه اللذة لا يعرف طعمها إلّا من كان محشواً بالقش مثلى » .

فتركته إذ ذاك ، وانصرفتُ وأنا لا أدرى هل مدحنى أم تنقّصنى » .

وانقضى عامٌ صار اللَّعين فى أثنائه فيلسوفاً علّامةً . وعندما مررتُ به ثانيةً رأيتُ غرابين يبنيان عشاً تحت قبَّعته .

* * *

بين هجعةٍ ويقظة

كان في المدينة حيثما وُلدتُ امـرأة وابنـة ، وكانت لهما عادةٌ أن تمشيا وهما نائمتان .

فحـدث في إحـدى ليالـى الصيـف الهادئـة الجميلة ، أن نهضت الأم وابنتها من نومهما على جارى عادتهما ، ومشتا ـــ وهما نائمتان ـــ في حديقتهما المبرقعة بالضباب .

وفيما هما ماشيتان قالت الأم لابنتها : « تبًّا لكِ من عدوٍ شرير ! أنتِ التي هدَّمتْ شبابى وبنَتْ حياتها على أنقـاض حياتـى ! آهِ لو أستطيـع أن أقتلك ! » .

فأجابت الابنة وقالت : « أيتها المرأة الممقوتة ، والحيزبون الأنانية الرثة ، القائمة بيني وبين ذاتي الطليقة ! يا من تودُّ أن تكون حياتي صدى لحياتها الرثة البالية ! ألا ليتك تهلكين ! ».

وفي تلك اللحظة صاح الديك فأفاقتا معاً من نومهما ، وهما بعدُ في الحديقة ماشيتان .

فقالت الأُم بلطف : « أذاك انتِ يا حمامتي ؟ » . فأجابت الابنة بحلاوة : « نعم أنا ابنتك يا حنونتي ! » .

* * *

الكلب الحكيم

مرَّ كلبٌ حكيم ذات يوم بجماعة من السنانير . ولما دنا منهم رآهم منصرفين عنه ولم يعبأوا بقدومه . فوقف يتأملهم مستغرباً أمرهم .

وفيما هو يحدق إليهم نهض من بين الجماعة سنور بادنٌ تبدو على وجهه أمائرُ الهيبة والوقار ، فنظر إلى رفقائه وقال لهم : « صلوا أيها الإخوة المؤمنون ، فإني الحق أقول لكم إنكم إذا صليتم وكررتم صلاتكم بحرارة ، يُستجاب تضرُّعكم وتمطركم السماءُ فئراناً في الحال » .

فلما سمع الكلب الحكيم تلك العظة البالغة ،

ضحك منهم فى قلبه وارتد عنهم وهو يردّدُ فى ذاته قائلًا : « ما أغبى هؤلاء السنانير وما أعمى بصائرهم عن إدراك ما فى الكتب ! أليس مكتوباً ، بل ألم أقرأ أنا ، وأجدادى من قبل أخبرونى أن ما تمطره السماء إجابةً للصلوات والتضرعات والابتهالات ليس فئراناً ، بل عظاماً ؟ »

* * *

الناسكان

عاش ناسكان فى قنة جبل عالٍ ، وكانا دائبين فى عبادة الله وحبهما الواحد للآخر .

وكان لهذين الناسكين قصعة من الخزف لم يكن لهما غيرُها مقتنى .

ففى أحد الأيام وسوس الخناسُ فى قلب الناسك الكهل ، فجاءَ إلى رفيقه الشاب وقال لهُ : « لقد مضى على حياتنا معاً زمنٌ طويل ، وقد آن لنا أن نفترق .. ولذا فإنى أريد أن نقسم مقتنياتنا » .

فاكتأب الناسك الشاب وأجابه قائلًا : « إن انفصالك عنى يجرح قلبى ، وحقّك يا أخى .

ولكن إن كان ثمة من ضرورة لذهابك ، فلتكن مشيئتك » .

ثم تناول القصعة الخزفية بيده وقال لهُ : « إن هذه القصعة هى كل ما نقتنى أيها الأخ العزيز ، ولما كانت قسمتها بيننا مستحيلة فأرى أن تكون لك وحدك » .

فأجابه الناسك الكهل وهو يتميز غيظاً قائلًا : « إننى لا أطلب منك صدقة ولا أقبل متاعاً ليس لى ؛ ولذا يجب أن تُقسم القصعة فينال كل منا نصيبهُ منها » .

فقال له الشاب بهدوء : « إذا قسمنا القصعة فأية منفعة ترجى من قسمتها ، سواءٌ لك أم لى ؟ فدعنا إن حسُنَ لديك نقترع عليها » .

فأجابه الكهل وقال : « إننى لا أريد سوى

حصتي كما تقضي العدالة بيننا . ولن أرضى بتةً عن القرعة العمياء ، التي تحط من قدر العدالة وتجعلني مقامراً أُعرِّض العدالة - وحصتي للصدفة ــ ولذا أُطلب قسمة القصعة » .

فلم يبق إذ ذاك مجال للشاب أن يبحث معه في الموضوع ، فقال له : « إذا كانت هذه حقيقةً رغبتك أيها الأخ الحبيب ووددت أن يكون الأمر على ما وصفت ، فلنقسم القصعة » .

فاسودّ وجهُ الناسك الكهل وصرخ به قائلًا : « تباً لك ، ما أجبنك وما أقعدك عن الخصام أيها الخامل البليد ! »

* * *

اطلبوا تجدوا

كان في قديم الزمان إنسانٌ ، وكان له ملءُ وادٍ من الإبَر .

ففي أحد الأيام جاءَت إليه أمُّ يسوع وقالت لهُ : « يا صاحب ، إن رداءَ ابني مشقوق ، وأريد أن أرتقه لهُ قبل أن يذهب إلى الهيكل ، أفلا تقرضني إبرةً ؟ »

فلم يُعطها إبرة . غير أنه أعطاها عظة بالغةً كانت عنده ، موضوعها « اطلبوا تجدوا » ، لكي تأخذها إلى ابنها قبل أن يذهب إلى الهيكل .

* * *

الذوات السبع

في سكون الليل العميق وقد بدأ النعاس يغالبني ، جلست ذواتي السبع يتحادثن .

فقالت الذات الأولى : « لقد مرَّت الأيام والأعوام على وجودي في هذا المجنون ، وليس لي ما أفعله سوى تجديد آلامه نهاراً وأحزانه ليلًا . وقد كرهت نفسي القيام بهذه الوظيفة المملة فلأثورنَّ عليه » .

فأجابتها الذات الثانية قائلة : « إنكِ أوفر مني حظًا يا أختاهُ ، فقد قدّر لي أن أكون شريكةً لهذا المجنون في أفراحه وملذاته ، فأضحك لضحكه

وأترنم في ساعات سروره وبأقدام مثلثة الأجنحة أرقص لأفكاره البرّاقة ؛ فإن تكن ثورة ، فمن أحقُّ بها مني ؟ » .

فقالت الذات الثالثة : « أواه أيتها الرفيقتان ، إن عملي أدعى إلى الثورة من عمليكما . فأنا الذات المريضة حباً ، المتلهبة شوقاً ، الهائمةُ حنيناً ! ألا إن الثورة على هذا المجنون من شأني ، وأنا ذات الشقاء والأسى ! » .

فقالت الرابعة : « إنني أكثر منكن شقاءً أيتها الرفيقات ، فقد قدّر لي أن أُثير كوامن البغض وأوقظ نيران الكره والحقد في قلب هذا المجنون ، فأنا — الذات الثائرة الهوجاء المولودة في كهوف الجحيم السوداء — أحق منكن بالثورة على مهمتي » .

وقالت الذات الخامسة : « إننى أغبطكنَّ جميعاً أيتها الأخوات بما قُدّر لكنَّ من العمل السعيد ، فقد آثر الدهر أن أجدد أحلامَ هذا المجنون التى لا تنتهى ، وأهيج جوعه وعطشه اللذين لا يسكنان ، هائمةً به على وجهى فى فضاء اللانهاية من غير أن أتذوَّق طعم الراحة ، ناشدةً ما لم يُعرف قط وما لم يُخلق بعد ؛ فأنا .. أنا أولى منكنَّ بالثورة والعصيان » .

فقالت الذات السادسة : « ما أسعدكن أيتها الأخوات وما أتعسنى وأشقانى ! فأنا الذات المشتغلة العاملة الحقيرة ، التى بيديها الدائبتين وعينيها الساهرتين ترسمُ من أيامها صوراً ، وتمنح العناصر الدنيئة العادمة الشكل أشكالا جميلة خالدة ـــ ألا إنه أجدر بى أنا الذات المعتزلة

الهادئة أن أنقم وأثور » .

فتطلعت الذات السابعة فى كلٍّ منهنَّ وقالت :

« أفٍ منكنَّ جميعاً ! ما أغرب ثورتكنَّ على هذا الرجل المسكين بحجة أن لكل منكنَّ عملًا محدوداً . حبذا لو أسعدتنى الأيام بعمل محدود كأعمالكنَّ ، فأنا ذاتٌ بطالة لا عمل لها ، أجلس أبداً بين اللانهايتين — الصمت والظلام — فى حين أن كل واحدة منكنَّ دائبة فى تجديد الحياة على تنوع مظاهرها . بربكن قلْنَ لى أيتها الشقيقات ، من منا أحق بالثورة أنتنَّ أم أنا ؟»

ولما فرغت الذات السابعة من كلامها نظرت إليها الذوات الست بشفقة وحنان ، ولم يحرنَ جواباً .

وجُنَّ الليل فرقدنَ وفى طيات صدورهنَّ

استسلام جديد ، وخضوع سعيد ، كلٌّ لما قُسِمَ لها من الواجب المحدود !

أما الذات السابعة فظلت شاخصة تُراقب اللاشيء ، الذى وراءَ كل شيء .

* * *

الحرب

وكان عرسٌ في قصر الأمير في إحدى الليالي ، وكان المدعوون يدخلون ويخرجون . فدخل رجلٌ مع الداخلين وحيَّ الأمير باحترام ووقار . فنظر إليه الجميع بدهشةٍ ، لأن إحدى عينيه مفقورةً والدم ينزف من نُقرتها الفارغة .

فسألهُ الأمير قائلًا : « ما دهاكَ يا صاح ؟ » فأجابه الرجل قائلًا : « أنا لصٌّ أيها الأمير ، وقد اغتنمت فرصة في ظلمة هذه الليلة على جاري عادتي ، وذهبت لأسرق أموال أحد الصيارفة . وفيما أنا أتسلَّق الجدار لأدخل دكان الصيرفي ،

ضللتُ سبيلي ودخلتُ من نافذة جاره الحائك . فعدوت طالباً الهرب وأنا لا أبصر شيئاً لشدة الظلام ، فلطم نولُ الحائك عيني وفقرها . ولذلك قد أتيتك الآن ملتمساً أن تنصفني من الحائك » .

فأرسل الأمير واستدعى الحائك . فأُحضر الحائك في الحال . فأمر الأمير أن تقلع عينُه .

فقال لهُ الحائك : « بالصواب حكمت أيها الأمير ، فإن العدالة تقضي بقلع عيني . ولكنه غير خافٍ على سموك أنني أحتاج في حرفتي إلى عينين لكي أرى حاشيتي الشقة التي أنسجها . غير أن لي جاراً إسكافاً لهُ عينان مثلي ، ولكنه لا يحتاج في مهنته إلا إلى عين واحدة . فاستدعِهِ إن أردت واقلع إحدى عينيه للمحافظة على الشريعة » .

فأرسل الأمير فى الحال واستدعى الإسكاف ،
فحضر واقتلعت عينهُ .
وهكذا تأيدت العدالة !

* * *

الثعلب

خرجَ الثعلبُ من مأواه عند شروق الشمس .
فتطلع إلى ظله منذهلًا وقال : « سأتغدّى اليوم
جملًا ! ». ثم مضى فى سبيله يفتش عن الجمال
الصباحَ كلهُ . وعند الظهيرة تفرَّسَ فى ظلّه ثانيةً
وقال مندهشاً : « بلى ، إن فأرةً واحدة
تكفينى » .

* * *

الملك الحكيم

كان في إحدى المدن النائية ملكٌ جبارٌ حكيم ، وكان مخوفاً لجبروته ، محبوباً لحكمته .

وكان في وسط تلك المدينة بئر ماءٍ نقيّ عذب ، يشرب منه جميع سكان المدينة من الملك وأعوانه فما دون ، لأنه لم يكن في المدينة بئر سواه .

وفيما الناس نيامٌ في إحدى الليالي ، جاءت ساحرة إلى المدينة خلسةً وألقت في البئر سبع نقطٍ من سائل غريب وقالت : « كل من يشرب من هذا الماء فيما بعد يصير مجنوناً » .

وفي الصباح التالي شرب كل سكان المدينة من ماء البئر ، وجنّوا على نحو ما قالت الساحرة .

ولكن الملك والوزير لم يشربا من ذلك الماء .

وعندما بلغ الخبر آذان المدينة ، طاف سكانها من حيّ إلى حيّ ومن زقاقٍ إلى زقاقٍ وهم يتسارّون قائلين : « قد جُنَّ ملكنا ووزيره . إن ملكنا ووزيره قد أضاعا رشدهما . إننا نأبى أن يملك علينا مليك مجنونٌ . هيا بنا نخلعه عن عرشه ! » .

وفي ذلك المساء سمع الملك بما جرى ، فأمر على الفور بأن يملأ حق ذهبي (كان قد ورثه عن أجداده) من مياه البئر . فملأوه في الحال وأحضروه إليه . فأخذه الملك بيده وأداره إلى فمه . وبعد أن ارتوى من مائه دفعه إلى وزيره ، فأتى الوزير على ثمالته .

فعرف سكان المدينة بذلك وفرحوا فرحاً عظيماً جداً ، لأن ملكهم ووزيره ثابا إلى رشدهما .

* * *

الطموح

جلس ثلاثة رجالٍ إلى خوانٍ فى حانة . وكان الأوُل حائكاً والثانى نجاراً والثالث حفار قبور .

فقال الحائك لرفيقيه : « قد بعتُ اليوم كفناً بديعاً من الكتان بدينارين ، فلنشرب ما طاب لنا من الخمر » .

فأجابه النجار وقال : « أما أنا فقد بعتُ أثمن نعشٍ عندى . فلنأكل أفخر اللحوم مع الخمر » .

فقال لهما حفار القبور : « إننى لم أحفر اليوم سوى قبر واحد أيها الصديقان ، ولكن الذى استأجرنى دفع لى الأجر مضاعفاً . فلنستحلِ بقليل

من العسل » .

فحفلت الخمارة بهم فى تلك الليلة ، لأنهم طلبوا الخمر واللحم والعسل غير مرة ، وكانـوا قصون طرباً .

أما صاحب الحانة فكـان يتلـفت بيـن آونـة وأخرى إلى زوجته متبسماً وهو يكاد لا يصدق ما يراه بعينيه . لأن ضيوفه الثلاثة كانوا ينفقـون المال من غير حساب .

وظلَّ الأصحاب فى الحانة إلى ساعة متأخرة من الليل يأكلون ويشربون . وبعد أن امتلأوا من كل شيء انصرفوا وهم يغنون ويضجُّون .

وكان صاحب الحانة وزوجته واقفَيـن ببـاب حانتهما يشيّعان ضيوفهما بأنظارهما .

فقالت المرأة لزوجهـا : « حبـذا لو يُسعدنـا

الحظ فى كل يومٍ بمثل هؤلاء الزبائـن الكرمـاء الشرفاء ، فإننا نتمكن وقتئذ من إعفاء ابننا الوحيد من خدمة هذه الحانة القذرة ، ونستطيع تعليمه ليصير فى المستقبل قسيساً .

* * *

اللذة الجديدة

اخترعتُ في ليلتي الماضية لذةً جديدة .

وبينما كنت أتمتع بها للمرة الأولى ، رأيتُ ملاكاً وشيطاناً قد وقفا ببابي يتخاصمان ويتناقشان على تعريف لذتي .

فكان الأول يصرخ بأعلى صوته قائلاً : « إنها خطيئة مميتة ! »

فيعترضه الثاني قائلًا بصوت أشدّ من صوته : « لا لعمرى إنها فضيلة ! » .

* * *

اللغة الأخرى

حدث أنه بعد ميلادى بثلاثة أيام كنتُ متكئاً فى مهدى الحريرىّ ، أتفرس بلهفة غريبة فى العالم الجديد حوالىّ .

فقالت أمى للمرضع : « كيف حال ولدى اليوم ؟ » فأجابتها قائلةً : « هو بخير يا سيدتى ، فقد أطعمته ثلاث مرات .. ولم أرَقطُّ قبلَهُ طفلًا بشوشاً مثلهُ » .

فما سمعتُ ذلك حتى ثار ثائر غضبى وصرختُ قائلًا : « لا تصدقى ، لا تصدقى ذلك يا أماه ؛ فإن فراشى خشن الملمس ، والحليب الذى رضعته مرّ المذاق ، ورائحة الثدى كريهة فى أنفى ، فيا

شدَّ ما بى من شقاء ! » .

فلم تفهم أمى لغتى ، وكذلك المرضع لم تفقه ما قلتهُ لأننى خاطبتهما بلغة العالم الذى أتيتُ منه .

وفى اليوم الحادى والعشرين لولادتى ، وهو اليوم الذى تعمدت فيه ، قال الكاهنُ لأمى : « إننى أهنئك يا سيدتى ، لأن ابنك وُلدَ مسيحياً » .

فقلتُ للكاهن مندهشاً : « إذا كان الأمر كما تقول ، فأحر بأمك التى فى السماء أن تكون تعسة بك ، لأنك لم تولَدْ بعدُ مسيحياً » .

فلم يفهم الكاهن ما قلته لَهُ بلغتى .

وبعد سبعة أقمار جاءَنا عرافٌ فتفرس فى وجهى مليًّا وقال لأمى : « إن ابنك هذا سيكون زعيما داهيةً ، وسيتبعه الناس طائعين » .

فصرختُ بأعلى صوتى قائلًا : « تلك نبوءَةٌ

كاذبة ، فأنا أدرى بنفسى وأعلم يقيناً أننى سأدرس الموسيقى والغناء ، ولن أكون إلّا موسيقياً » .

ولشدَّ ما دهشت إذ لم يفهم أحدٌ لغتى ، مع أننى كنتُ قد بلغت ذلك الحدّ من عمرى .

ولقد مَرَّ على ذلك ثلاثٌ وثلاثون سنةً ، وقد ماتت أمى والمرضع والكاهن (ظلل الله أرواحهم برحمته) . أما العراف فلا يزال حياً يُرزق . وقد رأيته فى الأمس أمام الهيكل فحدثته وحدثنى ، وأطلعته على انخراطى فى سلك أبناء الموسيقى فقال لى : « قد طالما وثقْتُ بأنك ستكون موسيقياً كبيراً ، ولقد سبقتُ فى أيام طفولتك فأنبأتُ أمك بمستقبلك هذا » .

فصدقتُ قوله ، لأنى أنا نفسى نسيتُ لغة العالم الذى أتيتُ منه .

* * *

الرمَّانة

عشتُ مرةً فى قلب رمّانة . وبينما أنا جالس يوماً فى خليتى سمعتُ حبةً تقول : « سأصير فى المستقبل شجرة متعالية ، تترنم الأرياح بأغصانها وترقص الشمس على أوراقها ، وسأكون قويةً جميلة على ممرّ الفصول » .

فأجابت حبةٌ ثانية وقالت : « ما أجهلك أيتها الرفيقة ! فإنى حين كنتُ صغيرةً مثلك حلمت أحلامك . ولكننى بعد أن صرتُ قادرةً على تحديد كل شىء بمقياس ومعيار ، أدركت أن جميع آمالى كانت باطلة » .

ثم قالت حبةٌ ثالثة : « أما أنا فإنني لا أرى فينا ما ينبىءُ بمثل هذا المستقبل العظيم » .

فأجابت حبةٌ رابعة وقالت : « إذا لم ترمِ حياتنا إلى مستقبل أنبل وأبهى ، فباطلةٌ هى » .

فوقفت إذ ذاك حبة خامسة وقالت : « ما بالنا نتجادل فيما سيؤول إليه أمرنا فى المستقبل ، فى حين أننا لا نعرف ما نحن عليه اليوم ؟ » .

فقالت حبة سادسة : « إننا سنظل أبداً على ما نحن عليه الآن » .

فأجابتها حبة سابعة قائلة : إن فى ذهنى صورةً واضحة للمستقبل ، ولكننى لا أستطيع أن أرسمها بالألفاظ » .

ثم تكلمت حبة ثامنة وتاسعة وعاشرة وحبوب كثيرة حتى تكلم الجميع ، فلم أفهم شيئاً لوفرة

الأصوات وبلبلتها .

فتركت الرمانة فى ذلك اليوم وأتيت فسكنت فى سفرجلة ، حيث لا يوجد إلا قليل من الحبوب تعيش بصمتٍ وسكون .

* * *

القفصان

كان في حديقة أبي قفصان .

وكان في أحدهما أسدٌ أحضره عبيد أبي من براري نينوى ، وفي الثاني زرزورٌ غرّيدٌ لا يملُّ الإنشاد .

وكان الزرزور يأتي في كل فجرٍ إلى الأسد ، فيحييه قائلًا له : « عم صباحاً يا أخي السجين » .

* * *

النملات الثلاث

اجتمع ثلاث نملات على أنف رجل كان نائماً في الشمس . فحيت كل منهنَّ الأخرى بتحية قبيلتها . ثم وقفنَ هنالك يتحدثنَ .

فقالت النملة الأولى : « إن هذه التلال والسهول التى نحن عليها اليوم ، هى أقفرُ جهة وطئتها فى حياتى على الأرض ؛ فقد طفتُ النهار بطوله أفتش عن حبة من أى نوع كان فلم أظفر بشىء » .

فأجابت النملة الثانية وقالت : « طالما سمعتُ أبناءَ قبيلتى يتحدثون عن مكان يطلقون عليه اسم الأرض الملساء الجرداء ، وما أكثر ما لهم فى دورانها وحركتها من الآراء . وإنه ليلوح لى أننا نسير

اليوم عليها ، لأننى تجولتُ فى جميع منعرجاتها وعطفاتها وخبرت بنفسى حقيقتها » .

فرفعت النملة الثالثة رأسها وقالت : « أيتها الصديقتان ، نحنُ الآن واقفات على أنف النملة العظمى ــ النملة الجبارة اللامتناهية ، التى تعاظم جسمها حتى عجزت عن رؤيته عيوننا ، واتسع ظلها حتى قصرت عن استقصائه مقاييسنا ، وارتفع صوتها حتى كلَّت عن سماعه آذاننا . هذه هى النملة الأزلية المالئة الأرجاء بلا نهايتها » .

وعندما فرغت النملة الثالثة من كلامها ، نظرت كلٌ من رفيقتيها إلى الأخرى وضحكتا من حديثها .

وفى تلك اللحظة تحرَّك الرجل فى رقدته ، فرفع يَدهُ وحكَّ أنفه فانسحقت النملات الثلاث تحت أصابعه .

* * *

حفار القبور

بينما كنت يوماً أدفنُ ذاتاً من ذواتي الميتة ، إذ وقف بى حفار القبور وقال لى :

« أنت هو الرجل الفرد الذى وقع بقلبى ، دون جميع الذين يأتون إلى هذه المقبرة » .

فقلت له : « لقد سرَّنى قولك يا صاح ، ولكن لماذا وقعتُ بقلبك دون سواى من الناس ؟ » .

فأجابنى قائلا : « إن سواك يأتى باكياً ويعود باكياً .. أما أنت فإنك تجئ ضاحكاً وترجع ضاحكاً » .

* * *

على درجات الهيكل

رأيتُ فى مساء الأمس امرأة جالسة على درجات الهيكل .

وكان جالساً معها رجلان ، واحدٌ عن يمينها والآخر عن يسارها ينظران إليها .

وقد لاحظت متعجباً أن وجنتها اليُمنى كانت شاحبة ، وأن وجنتها اليُسرى كانت متورّدة .

* * *

المدينة المباركة

خُبّرتُ في حداثتي عن مدينة كان جميع الناس يعيشون فيها وفق تعاليم الكتاب ، فقلت لنفسي : « لأسعيَنَّ إلى تلك المدينة سعياً ، وأحظى بما فيها من البركة العليا » .

وكانت المدينة بعيدة ، فأعددت للسفر كامل العدَّة . وبعد مسير أربعين يوماً أشرفت عليها . وفي اليوم التالي دخلتُها فإذا كلُّ سكانها أعور أقطع . فأخذتني الحيرة وقلت لنفسي : « وهل على كل من يعيش في هذه المدينة المقدسة أن يكون أعور أقطع ؟ » .

ثم لحظت أَن القوم كانوا ينظرون إليَّ بدهشة أعظم من دهشتي .. لأنهم هم أيضاً كانوا متعجبين من عينيَّ ويَديَّ .

وفيما هم يتحدثون سألتهم قائلًا : « هل هذه هي المدينة المقدسة ، حيث يعيش كل إنسان وفق تعاليم الكتاب ؟ » .

فقالوا : « نعم ، هذه هي المدينة » .

فقلت لهم : « وماذا حلَّ بكم ؟ أين عيونكم اليمنى وأيديكم اليمنى ؟ » .

فرثى الشعبُ لحالتي ، وأشفقوا على جهالتي وقالوا لي : « تعال وانظر » .

ثم قادني واحدٌ من متقدميهم إلى داخل الهيكل القائم في وسط المدينة .

وعندما دخلت الهيكل رأيتُ في الصدر رابية

من العيون والأيدى الذابلة ، فقلت لهم والدهش آخذ بى كل مأخذ : « بربكم قولوا لى أىُّ غازٍ سفاحٍ أغار عليكم ، فحكم بقطع أيديكم وقلع عيونكم ؟ » .

فإنَّ الجميعَ بمرارة متعجبين من جهلى ، ودنا منى أحدُ شيوخهم وقال لى : « يا ابنى ، إنما نحن الذين فعلنا ذلك بأنفسنا ، لأن الله سلطنا على الشر الذى كان حالًّا بنا ، فاستأصلنا جرثومتَهُ ؟ » ثم قادنى إلى مذبح عالٍ وجميعُ الشعب يتبعنا ، وهناك أشار بأصبعه إلى آية محفورة فوق المذبح ، وطلب إلىَّ أن أقرأها فقرأت :

« إذا كانت عينك اليمنى تشككُكَ فاقلعها وألقها عنك ، فخيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله فى جهنم . وإذا شكَّكَتكَ

يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خيرٌ لك أن يهلك أحدُ أعضائك ولا يُلقى جسدك كله فى جهنم » .

فأدركتُ إذْ ذاك سرَّهم ، وصرخت بهم قائلًا :
« أليس بينكم رجلٌ أو امرأةٌ بعينين أو يدين ؟ »

فأجابوا قائلين : « كلا ! ليس بيننا أحدٌ سوى الصغار الذين لم يبلغوا بعدُ رُشدهم ، ليقرأوا الكتاب ويعملوا بوصاياه » .

وعندما خرجنا من الهيكل أسرعتُ فغادرتُ تلك المدينة المباركة ، لأننى كنت بالغاً رُشدى وقادراً على قراءَة الكتاب .

* * *

الإلـٰه الصالح والإلـٰه الشرير

اجتمع الإلـٰه الصالح مرةً بالإلـٰه الشرّير على قنّة جبل . فقال الإلـٰه الصالح للشرير : « عِمْ صباحاً يا أخى » .

فلم ينبس الإلـٰه الشرّير ببنت شفة ، فقال له الإلـٰه الصالح : « يلوح لى أيها الزميل أن مزاجك متعكرٌ اليوم » .

فأجاب الإلـٰه الشرير قائلًا : « نعم ، أنا مستاءٌ جداً لأن القوم فى هذه المدة الأخيرة صاروا لا يميزون بينى وبينك ، وكثيراً ما أسمعهم ينادوننى باسمك ، ولا أكْرَهَ على نفسى منك ومن اسمك ! » .

فقال له الإلـٰه الصالح : « إن هذا هو ما يَحدُث لى أيضاً فى كل يوم أيها العزيز ، فإن كثيرين من الناس ينادوننى باسمك ويحسبوننى إياك » .

فمضى الإلـٰه الشرّير في سبيله وهو يُحرِّق الأُرَّم في قلبه ، لاعناً حماقة الإنسان وجهله .

* * *

في خيبتي غلبتي

يا خيبتي ، يا خيبة ! يا وحدتي وانفـرادي .
إنك لأعزُّ لديَّ من ألف انتصار ، وأحلى على قلبي من كل أمجاد الأقطار .

يا خيبتي ، يا خيبة !

يا معرفتي لنفسي واحتقاري لذاتي ، بكِ أعرف أنني لا أزال فتياً سريعَ الخطى ، فلا تغُريني أكاليلُ الغار الذابلة الفانيـة . بكِ قد حَظـيتُ بوحدتـي وانفرادي ، وتذوَّقتُ لذة فراري واحتقاري .

يا خيبتي ، يا خيبة !

يا سيفي البتار وترسي البـرّاق ، قد قرأت في

عينيكِ :

أن الإنسان متى جلس على عرش الملك فقد
صار عبداً ،
ومتى أدرك الناس أعماق روحهِ فقد طُوى
كتاب حياته ،
ومتى بَلغَ أَوجَ كماله فقد قضى نحبهُ ؛
بل هو كالثمرة إذا نضجت سقَطَتْ واندثرت .
يا خيبتى ، يا خيبة ! يا رفيقى الباسل الودود .
أنتِ وحدك تسمعين إنشادى وصراخى وسكوتى ،
وليس غيرك بمحدثى عن خفقان الأجنحة وهدير
البحار ، وعن قذائف البراكين الثائرة فى دوامس
الليالى .
أنتِ وحدك تتسلقين صخور نفسى الجلمودية
الشامخة .

يا خيبتى ، يا خيبة ! يا شجاعتى التى لا تموت .

أنت تضحكين معى فى العاصفة ، وتحفرين معى قبوراً لما يموت منى ومنك ، وتقفين معى أمام وجه الشمس بجلدٍ وثبات ، فنكون معاً هائلين راعبَين .

* * *

الليل والمجنون

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل قاتمٌ عارٍ ، أمشي على طريقٍ ناريٍّ يمتدُّ فوق أحلام نهارى . وحيثما تمسُّ رجلى الأرض فهناك تنبثق سنديانة جبارة » .

الليل : « كلا ، لستَ مثلى أيها المجنون . فإنك مازلت تتلَفَّت إلى ورائك لترى آثار قدميك على الرمال » .

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل صامتٌ وعميق ؛ وفى قلب وحدتى تتكئ إلاهة تتمخض

بمولود علوى تأتلفُ بكيانه الجنَّةُ والجحيم » .

الليل : « كلا ، لست مثلى أيها المجنـون . فإنك لا تزال ترتعش أمام الآلام ، فيهولك سماعُ أناشيد الهاوية » .

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل ، آبِدٌ جبَّار ، فإن أُذُنىَّ مُثقلتـان بنحيـبِ الأمـم المستعبـدة ، والتحسُّرِ على الممالك المهجورة » .

الليل : « كلا ، لستَ مثلى أيها المجنـون ، لأنك لا تزال تتخذُ ذاتك الصغرى رفيقاً وفيًّا ، ولا تستطيـع أن تتخـذ لك من ذاتك الجبَّـــارة صديقاً » .

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل صارمٌ وفظيع ؛ فإن قلبى لا يطـرب إلا لرؤيـة لهـيب المـراكب

المحترقة في البحار ، وشفتيَّ لا تستلذّان سوى دماء الأبطال المصروعين في ساحات الوغى » .

الليل : « كلا لستَ مثلي أيها المجنون ، لأن شوقك إلى أخت روحك ما برح متسلطاً عليك يُسيّرك كيف شاءَ ، ولم تصرْ بعدُ شريعةً لنفسك » .

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل ، جَذِلٌ وطروب ، فإن الرجل الذي يرافقني سكران أبداً من الخمرة البكر ، والمرأةُ التي تصادقني ترتكب الإثم وهي منشرحة الصدر » .

الليل : « كلّا لستَ مثلي أيها المجنون . لأن روحك مُقَنَّعة بقناع ذي طياتٍ سبع ، وأنت للآن لم تحمل قلبك على كفك » .

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل ، صبورٌ وكئيب ، فإن فى صدرى ألوفاً من قبور المحبين الذين ماتوا مخلصين ، فحنطتهم الدموع وكفنتهم القبلات الذابلة » .

الليل : « وهل أنتَ مثلى ؟ أحقاً أنتَ مثلى أيها المجنون ؟ وهل تستطيع أن تمتطى العاصفة جواداً وتمتشق البرق حُساماً ؟ » .

المجنون : « أنا مثلك أيها الليل ، أنا مثلك قديرٌ عظيم ، وقد بنيتُ عرشى على آكامِ الآلهة الساقطة ، وجعلتُ الأيام تمر أمامى صاغرة ، تقبل أهدابَ ثوبى من غير أن تجرؤَ على التطلع فى وجهى » .

الليل : « هل أنت مثلى يا ابن قلبى الدامس

المدلهم ؟ هل أنت مثلى ؟ وهل تخطر لك أفكارى الجامحة ، أم تتكلم لغتى الواسعة البيان ؟ »

المجنون : « بلى ، إننا شقيقان توأمان أيها الليل ، فأنت تكشف مكنونات اللانهاية ، وأنا أكشف مكنونات نفسى » .

* * *

الوجوه

رأيت وجهاً يظهر بألف مظهر ، ووجهاً مظهره واحدٌ أبداً كأنما قد سبك في قالب .

ورأيتُ وجهاً قدرتُ أن أقرأ تحت طلاوته الظاهرة بشاعتهُ المستترة ، ووجهاً ما رأيتُ روعة جماله المحتجب حتى رفعتُ قناعَهُ الظاهر .

ورأيتُ وجهاً شيخاً قد تجعد ولكن على لا شيء ، ووجهاً ناعماً قد ارتسمت على ملامحه جميع الأشياء .

أنا أعرف الوجوه ، لأنني أنظر إليها من خلال ما ينسجهُ بصري فأرى الحقيقة التي وراءَها بباصرتي .

* * *

البحر الأعظم

ذهبتُ ونفسي إلى البحر العظيم لنستحم بمائه .

وعندما وصلنا إلى الساحل طفنا نبحث عن مكانٍ مستورٍ عن الأنظار .

وفيما نحن نمشي ، رأينا رجلًا جالساً على صخرةٍ غبراءَ وفي يده كيسٌ يأخذ منه حفنات من الملح ويرمي بها إلى البحر .

فقالت لي نفسي : « هوذا المتشائمُ الذي لا يَرى من الحياة سوى ظلها . فلنترك هذا المكان لأننا لا نستطيع أن نستحمَّ أمامهُ » .

فتركنا ذلك المكان وسرنا إلى أن بلغنا جَوْناً في

الشاطئ ، فإذا برجل واقف على صخرة بيضاء وفى يده صندوقة مرصَّعة بالجواهر ، يتناول منها قطعاً من السكَّر ويرمى بها إلى البحر .

فقالت لى نفسى : « هو ذا المتفائل الذى يستبشر بما لا بِشْرَ فيهِ . فيجب أن لا يرى جسدينا العاريين » .

فتابعنا مسيرنا حتى بلغ بنا إلى شاطئ قريب ، فرأينا رجلًا يلتقط أسماكاً ميّتة ويعيدها إلى الماء بعَطفٍ وحنان .

فقالت نفسى : هو ذا الإنسانىّ الشفيق ، الذى يحاول إرجاع الحياة لمن فى القبور . فلنبتعد عنه » .

فعبرنا به وسرنا إلى موضع آخر ، فرأينا رجلًا يخطّط ظلَّه على المياه فتجئ الأمواج وتمحو

خطوطه ، ثم يعود فيخططه مرة بعد مرة .

فقالت لى نفسى : « هذا هو المتَصَوّف الذى يُقيم من أوهامه صنماً يعبده ، فلنتركْهُ » .

فخلَّفناه وراءَنا وسرنا إلى جونٍ صغير فى مكان آخر ، فرأينا رجلًا يكشط الزبد عن سطح الماء ويضعه فى كأس من العقيق .

فقالت لى نفسى : « هو ذا الخيالىُّ الذى يَحوك من خيوط العناكب رداءً يلبسه ، وهو لا يستحق أن يرى جسدينا العاريين » .

ثم سرنا قليلًا فسمعنا بغتةً صوتاً يقول : « هذا هو البحر ! هذا هو البحر العميق ! هذا هو البحر الواسع الجبّار ! » فسعينا إلى حيثُ خرجَ الصوت ، فإذا برجلٍ قد ولّى ظهرهُ شطر البحر ووضع على أذنيه صَدَفَةً كالقَرْن ، وقَعَد يُصغى إلى

ما تُرجعُه من الصدى .

فقالت نفسي : « سِرْ بنا فهذا هو الدهريّ الذى ينصرف عن الكليات التى تتجاوز فهمَـهُ ، إلى الجزئيات التافهة التى لا طائل تحتها » .

فخلفناه وراءَنا وانطلقنا إلى موضع آخر ، فإذا برجل منحنٍ بين الصخور وقد غَمَر رأسَهُ بالرمل ، فقلتُ لنفسي : « هلمى يا نفس لنستحمَّ ههنا ، لأن هذا الرجل لا يستطيع أنْ يبصرنا » .

فهزَّت نفسي رأسها وقالت : « كلا وألف كلا ! فإن هذا الذى تراه هو شرُّ خلقِ الله ، هو الرافضيّ الخبيث الذى يحجبُ نفسهُ عن مأساةِ الحياة ، فتحجبُ الحياة أفراحها عن قلبه » .

فبدَتْ إذ ذاك على وجه نفسي أماراتُ الحزن والأسى ، وبصوت تقطعه المرارة قالت : « هلمّ بنا

ننصرف من هذه الشواطئ ، لأنه ليس فيها مكان خفىٌّ آمنٌ نستحم فيه . فلن أرضى أن تعبث هذه الريحُ بشعرى الذهبى ، ولا أن يكشف هذا الهواءُ عن صدرى الناصع ، ولا أن يُظهر هذا النور عُريى المقدس » .

حينئذٍ تركنا ذلك البَحر ناشدين البحر الأعظم .

* * *

المصلوب

صرختُ بالناس قائلًا : « أودُّ لو تصلبونني »
فقالوا : « ولماذا يكون دمك على رءوسنا ؟ »
فقلتُ لهم : « وكيف تفاخرون بأنفسكم إن لم تصلبوا المجانين ؟ » .

فقبلوا قولي وصلبوني . فهدَّأ الصلبُ ثورة نفسي . وعندما كنت معلّقًا بين الأرض والسماء ، رفعوا رءوسهم وحدَّقوا بي وهم يتمايلون عجباً ، لأن رءوسهم لم ترتفع قبلُ إلى ما فوق أقدامهم .

وفيما هم مجتمعون حول الصليب ، رفع واحدٌ منهم صوته وقال لي : « عن أيّ ذنبٍ تُكَفّرُ

يا هذا ؟ » .

ثم قال آخر : « بربّك قلْ لنا ما الذى دعاك إلى التضحية بنفسك ؟ » .

وتلاهُ ثالث فسألنى قائلًا : « أوَ تظنّ أيها الجاهل أنك تشترى مجد العالم بهذا الثمن البخس الذى تقدمهُ ؟ » .

ثم قال رابع : « تأملوا ابتسامته الخرساء كأن لم يحلَّ به شىء ! وهل فى استطاعة بشر أن يبتسم لمثل هذا الألم ؟ » .

فالتفتُّ إليهم إذ ذاك وقلتُ لهم : « اذكروا ابتسامتى هذه ولا تذكروا شيئاً غيرها . فأنا لا أكفّر عن ذنب ، ولا أسعى إلى تضحية ، ولا أرغب فى مجد ، وليس لى ما أُصفح عنه . ولكننى قد عطشتُ فسألتكم دمى شراباً . وهل من

شرابٍ يبردُ غلةَ المجنـون سوى دمـه ؟ أجَـل ! وكنتُ أبكم فسألتكم الجراحَ أفواهـاً ، وكـنت سجيناً فى ظلمة أيامكم ولياليكم فالتمستُ سبيلًا يؤدى بى إلى أيام أبهى من أيامكم وليالٍ أسعد من لياليكم .

« وهـا أنـا ذا ماضٍ الآن إلـى حيث مضى كثيرون ممن صُلبوا قبلى . ولكن لا يخطُرُ لكم أننا معاشر المصلوبين نعبأ بصلبكم ، لأننا قد قُدِّر لنا أن نُصلب من جبابرة أشدّ منكم قدرةً وبطشاً بيـن الأرضين الدنيا والسماوات العليا » .

* * *

الفلكي

رأيتُ وصديقاً لي .. أعمى جالساً في ظلال الهيكل وحدَهُ . فقال لي صديقي : « هو ذا أحكم رجل في قومنا » .

فتركتُ إذ ذاك صديقي ودنوتُ من الأعمى فحييته ، وقعدتُ بجانبه أجاذبُهُ أطراف الحديث . وبعد هنيهة سألته قائلًا : « منذُ كم أنت أعمى يا سيدي ؟ » .

فأجابني وقال : « منذ ولادتي يا بُنيّ » .

فقلت لَهُ : « وأيّ مذهب من مذاهب الحكمة تتبع ؟ » .

فأجاب قائلًا : « أنا فلكى منجّم » .

ثم أشار بيده إلى صدره وزاد قائلًا : « إننى أرصد هذه الشموس وهذه الأقمار وهذه النجوم » .

* * *

الحنينُ الأعظم

ها أنا ذا جالسٌ بين أخي الجبل وأختي البحر ، ونحن الثلاثة واحدٌ في عزلتنا ، تربطنا محبةٌ عميقةٌ قويةٌ غريبة .

محبةٌ أعمق من أعماق أختي ، وأقوى من قوة أخي ، وأغرب من غرائب جنوني .

وكم هنالك من دهورٍ تقضت قبل أن بدَّدَ الفجرُ الأول دياجيرَ الظلمةِ عنا ، فرأى أحدنا أخاه .

قد شاهدنا ولادة كثير من العوالم ، واكتمالها وانحلالها ؛ بيد أننا أحداثٌ توَّاقون بعدُ .

أجل ، نحن أحداثٌ توّاقون ، ولكننا وحيدون مهملون .

نتكئُ متعانقين عناقاً أبدياً ، ولكننا غير مستريحين . وهل من راحةٍ لشوقٍ مستعبَد وشهوة لا تنفدْ ؟

أين إلٰه النار المتلهّب فيدفئ مضجع أختى ؟

بل أين إلٰهةُ الغيث الفياضة فتخمد براكين أخى ؟

وأنا أشقى الاثنين . من أين لى المرأة التى تتسلط على قلبى ؟

فى سكينة الليل تردّدُ أختى فى أحلامها اسمَ إلٰه النار المجهول لتدفئتها .

وينادى أخى الإلٰهة الغيث القصية لتبريد غلّته . أما أنا فمَنْ تُرى أنادى فى غفلتى ؟

لست والله أدرى ! لست والله أدرى !
ها أنا ذا جالسٌ بين أخى الجبل وأختى البحر ،
ونحن الثلاثة .. واحدٌ فى عزلتنا ،
تربطنا محبةٌ عميقةٌ قويةٌ غريبة .

* * *

وُرَيقة عشب وورقة خريف

قالت وريقة عشب لورقة خريف : « إنك تُحدِثين بسقوطك جلبةً فتبعثرين أحلام شتائي » .

فأجابتها الورقة مغتاظةً : « أيتها الدنيئة أصلًا وفصلًا ، الفظَّة المعقودة اللسان . من أين لك الأحلام وأنت ملتصقة بقذارات الغبراء ، بعيدة عن موسيقى الفضاء ، لا تُميِّزين بين الغناء والمُواء ؟ » .

قالت ورقة الخريف ذلك ، وهبطت على الأرض فنامت .

وعندما جاءَ الربيع أفاقت من نومها ، فإذا بها وُريقة عشب .

ثم أقبل الخريف ووافتها هجعة الشتاء ، فنثر الهواء حواليها أوراق الأشجار الذابلة فتململت فى ذاتها قائلة : « أُف من أوراق الخريف الثقيلة . إنها تُحدِثُ بسقوطها جَلَبَةً وضجيجاً فتبَعثر أحلام شتائى ! » .

* * *

العين

قالت العين يوماً لرفيقاتها الحواس : « إننى أرى وراء هذه الأودية جبلًا مبرقعاً بالغيوم ، فما أجمله جبلًا ! » .

فأصغت الأذن هنيهة لحديثها ثم قالت لها : « أين ذلك الجبل الذى تنظرين ؟ إننى لا أسمع صوته » .

ثم قالت اليد : « أما أنا فعبثاً أحاول أن أشعر به أو ألمسه . فليس هنالك جبل ألبتة » .

وقال لها الانف : « إننى لا أستطيع أن أفهم

كيف يوجد الجبل ، وأنا لا أقدر أن أشمَّهُ . ألا إنَّ وجوده لمستحيل » .

فتحولت العين إلى جهة أخرى ضاحكةً فى ذاتها . أما الحواس الأخرى فعقدن مجلساً بحثن فيه عما دعا العين إلى مثل هذا الضلال ، وبعد البحث الدقيق قررن بإجماع الآراء « أن العين قد خرجت ولا شك عن صوابها » .

* * *

العالمان

كان في مدينة (أفكار) القديمة عالمان .
وكان كلٌّ منهما يمقتُ معرفة الآخر ويحتقرها .
وكان الأول كافراً والثانى مؤمناً .

وحدث أنهما اجتمعا مرة فى ساحة المدينة ، وطفقا يتجادلان ويتحاجان أمام أنصارهما فى وجود الآلهة أو عدم وجودها . وبعد أن حميَ وطيس الجدال بينهما بضع ساعات ، مضى كلٌّ منهما فى سبيله .

وفى ذلك المساء بعينه ، ذهب الكافر إلى الهيكل وجثا على ركبتيه أمام المذبح مستغفراً

الآلهة عن جموح ماضيه ، وصار مؤمناً .

وفى الساعة نفسها أخذ المؤمن كتبه المقدسة فحرقها فى ساحة المدينة ، وصار زنديقاً كافراً .

* * *

عندما ولدت كآبتى

عندما وُلدَتْ كآبتى أرضعتها حليب العناية ، وسهرتُ عليها بعين الحب والحنان ،

فنمت كآبتى كما ينمو كل حيّ .. قوية جميلة تفيضُ بهجة وإشراقاً .

فأحببتُ كآبتى وأحبَّتْنى كآبتى . وأحببنا معاً العالم المحيط بنا ؛ لأن كآبتى كانت رفيقة القلب عطوفاً فصيَّرت قلبى رقيقاً عطوفاً .

وعندما كنا نتحادث ، أنا وكآبتى ، كنا نتخذُ الأحلام أجنحةً لأيامنا ومناطق للياليناً . لأن كآبتى

كانت فصيحة طلْيقَةَ اللسان فصيرتْ لسانى فصيحاً طلقاً .

وعندما كنا نغنى معاً ، أنا وكآبتى ، كان جيراننا يجلسون إلى نوافذهم مُصغين إلى غنائنا ، لأن غناءَنا كان عميقاً كأعماق البحر ، وغريباً كغرائب الذكرى .

وعندما كنا نمشى ، أنا وكآبتى ، كان الناس يَرنونَ إلينا بعيونٍ تشعُ حباً وإعجاباً ، متحدثين بنا بأرق الألفاظ وأحلاها ؛ غير أن بعضاً منهم كانوا ينظرون إلينا بعيون الحسد ، لأن الكآبة كانت منقبة محمودة ، وأنا كنتُ مُباهياً فخوراً بالكآبة .

ثم ماتت كآبتى كما يموت كل حىّ ، وبقيتُ أنا وحدى مفكراً متأملًا .

وها أنا ذا أتكلم الآن فتستثقل أذناى صوتى ،

وأنشدُ فلا يصغى أحـدٌ من جيرانـى لإنشادى ، وأطوف فى الشوارع فلا يعبأ أحدٌ بى ؛ غير أننى أتعزّى إذْ أسمعُ فى منامى أصواتاً تقول متحسرة : « انظروا ! انظروا ! فهنا يرقدُ الرجل الذى ماتت كآبتُه » .

* * *

وعندما ولدت مسرتى

وعندما وُلدَتْ مسرَّتى حملتُها على ذراعىَّ ، وصعدتُ بها إلى سطح بيتى أنادى قائلا : « تعالوا يا جيرانى ومعارفى ، تعالوا وانظروا ! فقد وُلدت مسرَّتى اليوم ، تعالوا وانظروا فيض مسرَّتى الضاحكة أمام الشمس » .

وشدَّ ما كان دهشى لأنه لم يأتِ أحدٌ من جيرانى ليرى مسرَّتى .

وظللت سبعة أشهر أُعلن مسرَّتى للناس بكرة وأصيلا على سطح بيتى ، ولكن لم يُصغ أحدٌ قطُّ إلى صوتى . فبقيتُ ومسرَّتى وحيدَين مُهمَلين

لا يعبأ أحدٌ بنا .

وما مرَّ على ذلك سنةٌ حتى سئِمَتْ مسرّتـي حياتها فامتقع لونُها واعتلَّتْ ، إذْ لم ينبُض بحبها قلبٌ سوى قلبى ، ولم يقبّل فمها سوى فمى .

فقَضَتْ مسرّتـــى فى وحشتهـــا ، وأمسيتُ لا أذكرها إلا عندما أذكرُ كآبتى .

وما الذكرى سوى ورقة خريف لا ترتعش فى الهواء هنيهة ، حتى تكفَّنَ بالتراب دهراً .

* * *

العالم الكامل

يا إلٰه النفوس الضائعة أيها الضائع بين الآلهة استمعني ! ايها القَدَرُ الرحيمُ الساهرُ على نفوسنا التائهة المجنونة أصغ إليَّ ! فإني وأنا ناقصٌ أعيش بين الكاملين من البشر . أنا ، أنا البشرية المشوَّشة ، السديمُ المضطربُ العناصر اتخطَّرُ بين عوالم تامَّة من شعوب قد كملت شرائعهم ، وتنزَّهت نُظُمُهم ، وتنسَّقَتْ أفكارهم ، وترتبت أحلامهم ، وتسجلت رؤاهم فى الأسفار والدواوين .

ربَّاه ! إن هؤلاء الناس يقيسون فضائلهم بالمقاييس ، ويزنون خطاياهم بالموازين ، ولديهم

سجلات وفهارس لما لا يُحصى من التوافه والنقائص التي ليست بالخطايا فتُعرف ، ولا بالفضائل فتُنصف .

ويقسمون أيامهم ولياليهم إلى أقسام مقنَّنة مرتبة ، فيفعلون كل شيء في حينه على وفق ما يخطر لهم . فالأكل والشربُ والنومُ وكساءُ العُرية ثم السآمة والضجرُ — كلٌّ في حينه .

والعملُ واللعبُ والغناءُ والرقصُ ثم الاستراحة عندما تحينُ ساعتها .

الافتكار في هذا والشعور بذاك ، ثم العدول عن الافتكار والشعور عندما يشرق نجم الأمل السعيد فوق الأفق البعيد .

سلبُ الجار بثغرٍ باسم ، ومنح العطايا بيد تتوقع الثناء والشكر ، ثم المديحُ بفطنة ، والملامة بتروٍّ ،

وقتل النفس بكلمة ، وإحراق الجسد بقبلة ، وغسل اليدين عند المساء كأن لم يكن هنالك من شيء .

المحبةُ بتقليد مطروق ، والتسليةُ على منوال مسبوق ، وعبادة الآلهة كما يحقُّ ويليق ، والاحتيال على الشياطين ، والمكر بالماكرين — ثم نسيانُ كل ما جرى وصار ، كَأن الذاكرة حلم من أحلام الأغرار .

التصوُّر لغاية ، والتأمل بعناية ، والمسرَّة بدراية ، والتألم بوقاية ، ثم إفراغ كأس الآمال رجاءَ أن تملأها الأيام فى المآل .

رباه ، رباه ! إن جميع هذه يسبقُ الفكر فيحبلُ بها ، والعزيمةُ فتلدها ، والدقة فتربيها ، والنظام فيسودُها ، والعقل فيديرها — ثم تُنحَرُ وتُلحَدُ فى

زوايا سكينة النفوس ، فتبقى قبورها الموسومة بالعلامات والأرقام ، عظة لنا ولجميع الأنام .

أجل ، هذا هو العالم الكامل الذى قد بلغ أوجَهُ ، عالمُ الغرائب والمعجزات .. بل هو أنضج ثمرة فى جنان الله وأسمى عالم بين عوالمه . ولكن لِمَ أنا ههنا يا رب ؟ لِمَ أنا ههنا وأنا ثمرةٌ عجراء لم تنل بعد شهوتها من النماء ، وعاصفة صماء هوجاء لا شرقاً تبتغى ولا غرباً ، وذرة هائمة تائهة من كوكب محترق ثائر ؟

لِمَ أنا ههنا ؟ لِمَ أنا ههنا ؟ يا إلٰه النفوس الضائعة ، أيها الضائع بين الآلهة ؟

* * *

« انتهى المجنون »